NISSRINE **LAMDARDAR**
Groupe Scolaire RYAD AL MAARIFA - Rabat

"هل نحن في حاجة الى الفلسافة ؟ " ، لعل هذا السؤال شكل عند بعض المفكرين تشكيك في قيمة الفلسفة و احتقار صريح لجدواها. غير انه يبقى التساؤل يفرض نفسه و يستدعي تذخل لتوضيح جوهرها و التعريف بقيمتها.

لطالما شكل التفكير الفلسفي نمطا متميزا ضمن اشكال التفكير التي عرفتها البشرية طيلة تاريخها الطويل و قد مرّت بمراحل عرفت فيها الازدهار و التطور ، و اخرى التدهور و التراجع. و قد كانت طيلة هذه المراحل أما للعلوم بحيث كان يعتبر الفيلسوف دائرة المعارف ، تجمع كل العلوم (الطب ، الهندسة ، الرياضيات ...) .

مع القرن 19 ، بدأت العلوم تستقل عن الفلسفة و قد أدى ذلك إلى انحسار التفكير الفلسفي و تراجعه عن العديد من المجالات . و مع اكتساح العلوم الحقة في بداية القرن 20 ، و تطبيقاتها العلمية ، اضافة الى التطور المعلوماتي ، بدأ التساؤل عن جدوى الفلسفة يطرح نفسه بالحاح ، من هنا يمكن طرح الاشكال التالي : ما هي قيمة الفلسفة في وقتنا الرّاهن ؟ هل يبقى للفيلسوف دور في زمن طغت فيه التكنولوجيا ؟ و هل من مستقبل للفلسفة ؟

بداية لا بد من تحديد المعالم الأساسية للتفكير الفلسفي و خصائصه. لقد كان ظهور الفلسفة في بلاد اليونان إعلانا عن إحداث قطيعة في التفكير لدى الإغريق، حيث تم الإنتقال من الخطاب الشفوي الأسطوري إلى الخطاب الفلسفي المكتوب الذي يعتمد على الاستدلال العقلي وإنتاج الأفكار والمفاهيم العقلية المجردة. وقد كان للعامل السياسي دور كبير في بزوغ هذا الفكر الجديد حيث ظهرت الفلسفة في مناخ ديمقراطي عرفته المدينة الدولة، حيث سادت حرية التعبير وأصبحت كل القضايا مطروحة للنقاش الحر والعلني. كما ساهمت عدة عوامل في ظهور الفلسفة : منها استفادتهم من ثقافات وعلوم

الحضارات الشرقية القديمة كالفرعونية والبابلية. اذ ارتبط ظهور الفلسفة بظهور نظام الدولة المدينة كنظام سياسي ديمقراطي عرف جدلا وحوارا وحرية في التعبير، واستخداما للأساليب الحجاجية والبرهانية.

تميزت الفلسفة بكونها بحث مستمر عن الحقيقة ، و الحث عن التساؤل في كينونات الاشياء و اصولها. فالمراد بها دراسة الكليات لا الجزئيات، أي الاهتمام بما هو شمولي عام والابتعاد عن الحالات الفردية المعزولة في الزمان والمكان، فإذا كان الجيولوجي يبحث في أصل تكون جبل أو نهر ما فإن الفيلسوف يبحث في أصل الكون ككل لا في أصل جزء منه. الفلسفة هي علم الحكمة والمثل العليا للارتقاء بمنظومة العقل البشري لمراتب أعلى تتمثل باتخاذ مبادئ العدل والمساواة كأساس للحكم بين البشر. كما أنها علم لإدارة شؤون الدولة والمجتمع بما يحقق الوفاق الاجتماعي والعدالة ويكشف عن مظاهر الشر والفساد في مرافق الدولة لتحسين أداءها بما يحقق مصالح الأفراد والجماعات مستندةً لمبادئ العدل والمساواة في إدارة شؤون الدولة والمجتمع.

إن منزلة الفيلسوف تفوق أياً منزلة أخرى في المجتمع، لأنها لاتسعى لتحقيق مصالحها الخاصة وأنما تهدف لتحقيق مصالح المجتمع من خلال مطالبة الحاكم بأتباع السُبل الناجعة لتحقيق العدالة والمساواة بين البشر.

يعتقد ((الكندي))"أن أعلى الصناعات الإنسانية منزلة، وأشرفها مرتبة، صناعة الفلسفة لأنها تبحث في علم الأشياء وحقائقها وقدرة الإنسان. فغرض الفيلسوف من عمله إصابة الحق والعمل به".

تركز الفلسفة في مسعاها على الاستقرار والأمن الاجتماعي وترفض الفوضى وعدم الاستقرار في المجتمع. وتدعو إلى التحلي بالقيم والمثُل العليا والالتزام بمبادئ قيم الخير ونبذ الشر لأنها تنظر إلى الإنسان بكونه غاية وليس وسيلة.

لذا ينصب اهتمامها على البحث في علاقة الإنسان بالمجتمع والطبيعة وتسخير كل الامكانات لتعزيز وجوده باعتباره الكائن الأكثر قدرة على استخدام منظومة العقل لتسخير موارد الطبيعة لتطوير حياته بما يخدم الحضارة الإنسانية.

كما أن الفلسفة تبحث في كافة الشؤون الحياتية والكونية، بغرض إيجاد السُبل الصحيحة لبناء مجتمع مستقر تسوده العدالة والمساواة. وترفض تدخل الدولة القسري في الشؤون الخاصة لأفراد المجتمع، لفرض توجهاتها الساعية لتحقيق مصالحها الذاتية وعلى حساب مصالح المجتمع.

وهي من جهة التنظيم والترتيب المنهجي المحكم للقضايا والإشكاليات والأفكار، ومن جهة ثانية الاتساق وعدم التناقض مع الذات.تتمثل ايضا في التدرج في عرض الأفكار على شكل سلسلة مترابطة الحلقات يتم فيها الانتقال من البسيط إلى المركب ومن السهل إلى الصعب ومن المعلوم إلى المجهول، ثم استخلاص النتائج المترتبة عنها وتبريرها منطقا بأن يكون الحجاج

المقدم عنها حجاجا عقليا مقبولا ومقنعا. كما يطبعها النقد ؛ ويقصد به إعادة النظر الدائمة في القضايا والأفكار والقيم القديمة السائدة حول موضوع ما. وفي هذا يقول سقراط بأن الخطاب الفلسفي «يبحث على الإزعاج ويوقظ من النعاس العميق» ويضيف برتراند راسل (1872ء1970) بأن الفلسفة «قادرة على اقتراح إمكانات عديدة توسع آفاق فكرنا وتحرر أفكارنا من سلطان العادة الطاغي... وتزيل التزمت» وذلك باعتماد الشك المنهجي في كل شيء من أجل الوصول إلى اليقين، مع الإيمان بأن الحقيقة –التي تنشدها كل فلسفة – ليست مطلقة بل هي نسبية دوما. ولذا نجد أنه ليس هناك من فيلسوف لم ينتقد سابقيه أو معاصريه وليس هناك من فيلسوف لم ينتقد من معاصريه أو لاحقيه، و بهذا المعنى تكون الفلسفة عبارة عن حوار انتقادي.وهو في الوقت ذاته نتيجة للموقف النقدي وسبب له، إذ أنه كما يقول ياسبيرز «الأسئلة في الفلسفة أكثر أهمية من الأجوبة، وكل جواب يصبح بدوره سؤالا جديدا». فالفيلسوف الحق هو الذي يبتدئ بسؤال وينتهي إلى علامة استفهام. يعتقد البعض بأن الدافع الى التفلسف هو وليد العطالة الاجتماعية، بمعنى أن هؤلاء الفلاسفة لم يجدوا ما يقمون به فشرعوا الى ممارسة فعل التفلسف، وهو الرأي الغالب عند الجمهور أي عامة الناس. وهنالك تصور ثاني ينصف الفلسفة كتفكير بقوله إن التفلسف هو نابع عن إشكالات مجتمعية عاشها الفيلسوف في عصره وزمانه، لذا عمل على جرد هذه الاشكالات وحملها من طبعها الملموس المادي إلى الطابع المجرد، أي أصبحت نظرية، إذن مفهوم النظرية هو فكرة اختمرت في ذهن الفيلسوف قد تتحقق أو لا تتحقق؟ يحاول تقديم إجابات نسبية عن هذه الاشكالات. الجمهور كذلك يعمق من قلق العبارة عندما لم يجد جوبا شافيا لتلك الاشكالات يقول الفلاسفة لم يتفقون حتى فيما بينهم إذن لا داعي لممارسة فعل التفلسف. كارل ياسبرز هنا يقول تمة قوة الفلسفة عندما لا تقدم جوابا نهائيا عن الاشكال بل أكثر من ذلك السؤال في الفلسفة أهم من الجواب. لأن في تقديم جوب نهائي هو قتل بمعنى أخر للفلسفة وللتفكير المشاغب الذي يحاول تفسير أي شيء.

اضافة الى كونها تجاوز للجمود و الانغلاق الفكري ؛ اذ شكلت مجالا خضبا لتنوع الافكار و تضاربها بل و صراعها لكن دون عنف لفظي و دون ان تقع في تحريضه على عنف مادي؛ لانها في الاصل دفاع عن القيم الانسانية الكبرى مثل التسامح و التعاون و احترام رأي الآخر .

ان ما يميز الفلسفة ايضا انها لا تؤمن بالحقيقة المطلقة التي يمتلكها فرد او جماعة ؛ انها سعي دائم لبناء هذه الحقيقة ، و توسيع مجالها بالنقد و التساؤل و التدقيق .

هكذا كانت الفلسفة طيلة تاريخيها في عمقها و جوهرها ، بغض النظر عن مضامينها و تياراتها المختلفة و بغض النظر عن المجالات التي اهتمت بها (سياسية ، اقتصادية ، اجتماعية ؛ نفسية ؛ دينية ، انسانية ...) فانها ارتبطت دائما بالبحث عن العمق و تجاوز ما هو سطحي و جاهز .

لعل هناك اطروحة او تصور متداول في العديد من البلدان المتقدمة عن جدوى الفلسفة بحيث العديد منها امثال الولايات المتحدة الامريكية ، و المانيا ...لم تعد تدرسها في المستوى الثانوي بل اقتصرت في ذلك على المستوى الجامعي . فالى اي حد يمكن تبني نفس التصور ؟!

من الواضح ان العديد من المشكلات و التساؤلات الفلسفية التي وجد لها العلم حلا او ايجابات لم تعد تنتمي الى مجال الفلسفة بل اصبحت ضمن مجال العلم. لكن العلوم على انواعها لم تقدر على ،الاجابة عن كل التساؤلات فضلت في نطاق الفلسفة.

مثل البيوتيقا ، هذا المجال يرتبط بالفلسفة كما يرتبط بالعلم ؛ فهو يهتم بالاسئلة الكبرى التي احدثها التطور البيولوجي مثل الاستنساخ البيولوجي ، التعديل الوراثي.

و منه فدور الفلسفة هو حث العلماء على التفكير ، انها لا تدعي ايجاد الحلول و انما تدعو من خلال مقالات مفكريها و فاعليها للبحث و تعميق الفكر و اعمال العقل .

هذه مهام لا يمكن لغير الفلسفة القيام بها ، هذه هي المهمة الخالدة للتفكير الفلسفي ؛ ان جوهرها هو التساؤل و هذا هو سر بقاءها . فمادام الانسان عاقلا و مادام موجودا يفكر فسيظل دائما يتساؤل ، و مادام يتساؤل فلابد انه يتفلسف.